مقاربة عرفانية لرواية ''زريعة البلاد''
للروائي المغربي الحبيب دايم ربي

مبارك الأشهب
طالب باحث بسلك الدكتورة
مختبر تحليل الخطاب وأنساق المعارف
تحت إشراف الدكتور الرحالي الرضواني
المغرب

لعلنا لا نجانب الصواب إذا قلنا إن اللسانيات العرفانية تيار لساني حديث النشأة تأسس على النظر في العلاقة التفاعلية بين اللغة البشرية والذهن والتجربة بما فيها الاجتماعي والنفسي والبيئي. وحاول هذا التيار الإجابة عن أسئلة من نحو: كيف نفكر؟ كيف نتمثل العالم حولنا؟ كيف نكتسب المعلومات ونخزنها ونوظفها؟ كيف نعطي لتجربتنا في الحياة معنى. وهذه الأسئلة في الحقيقة لم تكن جديدة، ولكن الجواب عليها جديد. وتعد المقولة والفهم والخيال والتجسد من المقولات الأساسية التي تأسست عليها اللسانيات والبلاغة العرفانية في علاقتها بإدراك المعنى وفهم الذات والعالم من حولها. فالمعنى من منظور ديناميكي ومرن متحرك، لأنه يتغير باستمرار، من جملة تدل على معنى لا صلة له بمعاني الألفاظ فيها، وكم من خطاب معناه الحاصل غير المعاني التي في جمله.

ويمكن القول إن أبرز حضور للسانيات العرفانية يتجلى في مبحث الاستعارة، فلم تعد الاستعارة قضية لغوية مرتبطة بالخيال الشعري والزخرف البلاغي، بل هي آلية للتفكير تتصل بكل مجالات حياتنا اليومية. ذلك أن اللغة بطبيعتها استعارية، إذ تؤسس آلية الاستعارة النشاط اللغوي، فكل قاعدة أو مواضعة لاحقة تولد بقصد تحديد الثراء الاستعاري وتنظيمه.

وهذا يعني أن النص في المتصور العرفاني استعارة تصورية كبرى مسكونة بقصد الدلالة. وهذا القصد تصوري ذهني بالأساس، التصوري الذي يسير تفكيرنا وسلوكنا له طبيعة استعارية تمثل اللغة إحدى الطرق الموصلة إلى اكتشافها، لذلك تعد الاستعارة التصورية بعدا مهما من الأبعاد المشكلة قصد الدلالة في التصور العرفاني.

ووفق هذا التصور يلح لا يكوف وجونسن على عد الاستعارة أداة معرفية لها دور بالغ الأهمية في بلورة الكثير من أفكارنا وتصوراتنا، حيث يصران في أكثر من موضع من كتابهما "الاستعارات التي نحيا بها " على أن طريقة تفكيرنا وتعاملنا وتجاربنا وسلوكنا وأنشطتنا في أغلبها استعارية. ومن هنا تكون الاستعارة حاضرة في كل أسيقة حياتنا اليومية، ومواضعاتنا الاجتماعية، والسياسية، والدينية، وم تم ثم يصلان إلى نتيجة مفادها أن " الاستعارة ليست مسألة لغوية فحسب، بل إنها ترتبط بالفكر وبالبنية التصورية، والبنية التصورية لا ترتبط بالفكر فقط، بل إنها تتضمن كل الأبعاد الطبيعية في تجربتنا، بما في ذلك المظاهر الحسية في تجاربنا مثل اللون والهيئة والجوهر والصوت"

وإذا كانت الاستعارة بنية تصورية مرتبطة بالذهن وتؤدي إلى الفهم وإنتاج المعرفة، فقد برهن لا يكوف وجونسن على هيمنتا من خلال استعارات تتأسس على ترابطات نسقية داخل تجربتنا بها نفكر ونتفاهم ونتواصل ونوسع قدراتنا الفكرية. وتتمثل هذه الاستعارات في الاستعارة البنيوية التي تتأسس على ترابطات نسقية داخل تجربتنا وتسمح باستخدام تصور "مبنين" وواضح في بنية تصور آخر من نحو استعارة (الإشاعة نار)، أما الاستعارة الاتجاهية فتكون بناء على تجاربنا الفضائية كالأفضل فوق والأدنى تحت. مثلما يعتبر لا وجونسن الاستعارة الأنطولوجية طبيعية ودائمة في فكرنا، لدرجة أننا نتخذها عادة بديهيات ولا يخطر ببال جلنا أن الأمر يتعلق بتصورات استعارية.

ومادامت الاستعارة نشاطا ذهنيا ينهض بدور مهم في معرفة حقائقنا اليومية فإلى أي حد يمكن قراءة الاستعارات التي وظفها الروائي الحبيب الدايم ربي في روايته "زريعة البلاد".

لا شك أن تدقيق النظر في البنية الاستعارية المتضمنة في المتن الحكائي لرواية "زريعة البلاد" يدرك أن جل أحداث الرواية تدور حول استعارة كبرى تتوالد منها استعارات عدة توالدا ذهنيا وحدسيا أساسه ما عبر عنه لايكوف ب {الكفاية التصورية} القادرة على بنينة الأنساق الفكرية التصورية استنادا إلى التجارب الفيزيائية المرتبطة بعناصر العالم الخارجي.

إننا نسعى في هذا العرض أن نتدبر، إلى حد ما، الأشكال الاستعارية التي تضمنتها الرواية، من وجهة نظر عرفانية.مقتنعين بأن الاستعارة من منظور عرفاني لم تعد زخرفا لفظيا، بل باتت آلية ذهنية تتحقق لغويا، وأنه لاغنى عنها في فهم العالم وإدراكه وتمثله ذهنيا. وقد أثبت لايكوف وجونسن أن الاستعارة منتشرة في اللغة والفكر اليوميين ومشكلة لجل أفكارنا وسلوكاتنا وأقوالنا.

سأحاول أن أدرس نصا روائيا، وفق رؤية البلاغة العرفانية، ويتعلق الأمر برواية " زريعة لبلاد" للحبيب الدايم ربي، لأتبين من خلالها كيف يمكن استخلاص الخيط الفكري الجامع بين أجزاء النص من خلال اعتماد تصور المشابهة أو المفهوم الاستعاري كما يسميه العرفانيون. فبين الاستعارة والثقافة روابط خفية، حيث تصير الاستعارة فكرة مرتبطة بلاشعور الكاتب، يشكلها للتعبير عن رؤيته للعالم.

فالمبدع يعود إلى التجارب والأفكار المخزنة في لا وعيه، ويعيد توظيفها جماليا واستعاريا للتعبير عن الوضع الجديد، فالإنسان في ذهنه مخزونا من المفاهيم الاستعارية التي تشكلت من خلال التجارب التي مرت في حياته، والتي شكلتها الثقافة والتراث الذي فيه، ومن خلال ذلك يحاول فهم ما حوله فهما استعاريا.

معنى ذلك أن المبدع يبني تصوراته الاستعارية من المحيط الذي يعيش فيه، حيث تنشأ التعبيرات الاستعارية عن فكرة مهيمنة في ذهن المبدع بسبب تعرضه لبعض المواقف الحياتية، التي جعلت هذه الفكرة أو المعنى يترسخ في ذاكرة الإنسان، هذه الفكرة المهيمنة تسمى بالمفهوم الاستعاري (الاستعارة المفهومية) يستثمرها المبدع للتعبير عن رؤاه في شكل استعارات لغوية، وكأننا في هذه الحالة، نتحدث عن وجود بالقوة للفكرة المهيمنة في اللاشعور، ووجود لها بالفعل على شكل تعابير مجازية استعارية تعكس المواقف والحالات

وفي رواية " زريعة لبلاد" تظهر بنية المشابهة فيها بشكل واضح في مواضع كثيرة، ولعل عتبة العنوان تشي برغبة الكاتب في تشبيه ناس البلدة بالبدور (ناس القرية كالبدور) فيها الصالح والطالح، فمنها من ينبت خيرا بخصاله وأخلاقه، ومنهم ينبت شرا بنفاقه وخداعه.

ومما يعزز هذا التصور الاستعاري، هذه العبارات التي تطالع القارئ في بداية الرواية (**أولاد الكلب . عديمي المروءة . عبارة واهنة، لكنها نار تكوي على ألسنتهم) ص، 3**.

"العبارة نار"، فهو يشبه كلام الناس ونميمتهم وإشاعتهم بالنار. وهو بذلك يشير إلى زريعة لبلاد، ناس لبلاد، ولعل الكاتب يضمر في لا شعوره، معاناة من العادة السيئة في مجتمعنا وهي النميمة والإشاعة الكاذبة.

يقول الراوي: **{النمم نفث ريحا في رماد الحكاية، أجج الجمر الخابي نيرانا وقادة، والباقي الأسوأ، تكفلت به الإشاعة} ص،6**

حيث، تصبح النميمة والإشاعة نار.

ومما يؤكد أن في الرواية صورة استعارية كبرى (النميمة والإشاعة نار) تتفرع عنها مجموعة من الصور الاستعارية الفرعية، قول الراوي {قالوا والله أعلم أن السلومي واحد النهار خرج في طرف من الليل...}.

إن صورة المشابهة أو التصور الاستعاري الأساسي الذي تقوم عليه الرواية في عمومها، هو أن الإشاعة نار، قد تحرق كل ما تجده طريقها من علاقات إنسانية وعائلية واجتماعية، ولذلك تتحول الحياة (حياة البطل التاقي) إلى معركة ضد الإشاعة، حيث تصاغ الرواية وتتشكل مكوناتها السردية حسب هذه الاستعارة الكبرى، التي يمتد أثرها إلى جميع حكايات الرواية، فالروائي اختار أن يبني متن على شكل حكايات تحمل عناوين فرعية لها ارتباط بالتصور الاستعاري (الاشاعة نار) (**خروب بلادي . حكاية ملفقة . حكاية مضحكة لكنها لا تسر .. صدق أو لا تصدق .. الحكاية وما فيها . حكايات مغرضة .. جنازة غريبة . الحقيقة الغائبة . بيان حقيقة .. حديث ما جرى .. تجريح في السرائر. الدنيا الغرارة**.

إن الرواية تظهر كيف أن معركة الإنسان مع الإشاعة ممتدة عبر الزمان، هذه المعركة التي فيها العديد من الضحايا المهزومين والقتلى، كما حدث لبطل الرواية (التاقي) وأبوه السلومي الذي لم يشفع له موته، ولم يخلصه من ألسنة السوء.

إن الاستعارة في الرواية . وحسب التصور العرفاني .. هي إحدى أهم آليات كشف الوعي المهيمن في الخطاب الروائي والإبداع بصفة عامة، إذ يعتمد المبدع على ما هو مخزن في ذاكرته في تشكيل مفاهيمه الاستعارية بشكل يسهم في إنتاج خطابه، ويعبر عن مواقفه ورؤيته للعالم في كثير من الأحيان. ولهذا تبدو الاستعارة ذات علاقة تبادلية مع السلوك والفكر والثقافة الإنسانية من حيث التأثير والتأثر، فهي ذات دور مهم في تشكيل خطاب الإنسان وإبداعه وسلوكه، وتحكم تفاعله مع واقعه المحيط، وتحدد مساراته وخياراته.

لقد أ دركنا بهذه المقاربة العرفانية توفر رواية "زريعة البلاد" على نماذج من الاستعارة، تتجسد من خلال ثلاث أنواع متفاعلة فيما ومتعالقة. وقد تجلى ذلك في الاستعارة الاتجاهية والاستعارة الأنطلوجية والاستعارة البنيوية. ففي الاستعارة الاتجاهية لاحظنا أنها علاماتها اللغوية وهيئتها النسقية وأبعادها الأنطلوجية من البيئة والمحيط الذي يعيش فيه الروائي، وقد دل هذا على أن الاستعارة تعمل على بنينة مختلف خطاباتنا اليومية العادية استنادا إلى تجاربنا الفيزيائية التي ترتبط بشكل مباشر باحتكاكنا بالعالم الخارجي.

وقد اتضح لنا أن الروائي عندما يشير بصريح اللفظ، أو بشكل ضمني إلى أن ناس البلاد يشبهون البدور، فهو يود التعبير عن حالة التي يعيشها في محيطه. مثلما استعمل استعارة (الإشاعة والنميمة نار) للتعبير عن هذه الآفة الاجتماعية.

كما اعتمد الحبيب الدايم ربي في روايته تصورا استعاريا أنطلوجيا قائما على بنينة الأنساق والموضوعات المجردة، استنادا إلى أنساق فيزيائية وموضوعات محسوسة، إن الروائي نظر في مقامات مخصوصة من روايته إلى الأشياء المجردة والانفعالات بوصفها أشياء مادية محسوسة، فالاستعارات: زريعة البلاد . الإشاعة والنميمة نار، عندما أولناها حصلنا على معنى مجازي يعكس القضية الاجتماعية الي يعالجها المبدع، مما يجعل اللغة تتجاوز الغرض التواصلي، لتصبح ملجأ يطمئن إليه المبدع، ويعتبره مصدر الشعور بالأمان والاطمئنان.